هذا الجزء مني. و أيضاً لا استطيع إن ارسله ملف as an attachment لأني باستخدم الآيباد.
عمّة سميرة

سميرة محمد حسين زيدان
لم يترجم أبي لحياته بصورة متكاملة، و لكنه كان يذكر أجزاءاً منها بصورة متفرقة وفق سياق الحديث. و قد يصعب سرد تفاصيل هامة في حياته، كان لها أثر كبير في تشكيل شخصيته، و لكن أهمها أنه نشأ يتيم الأم. ربته جدته لأمه ميثاء. كانت عمياء مثل كثيرات غيرها في ذاك العصر. أحبه أبوه و اشفق عليه من اليتم مرتين، فكان يجزع إذا ألمّ به مرض خوفاً من أن يتركه وحيداً دون أبوين. حرص على تعليمه، و كان فخوراً بذلك. حرمانه من عطف الأم و رعايتها خلق في نفسه حنيناً دائماً للأنثى الأم و احتراماً لها. مفتاح شخصيته العطاء. يعطي الحنان و الحب و الرعاية و الإهتمام لمن يراه محتاجاً لأي منها. لا يبخل بعطاء مادي، حتى على حساب نفسه و أهله و بيته. يحب أن يكون ذا اليد العليا، فتزداد فرحته بالطلب و يزداد حبه لمن طلب.
كان شغوفاً بالقراءة و مشجعاً عليها. لا أذكر أن طلبه أحد كتاباً إلا أعطاه إياه، فإن لم يتوفر لديه، اشتراه لمن طلبه. و لا يهتم بعدها أن يسترد الكتاب. في قراءته عمق و تحليل، يجذل للكلمة المجنحة، كما يحب أن يصف الجميل من الكلام.

كان أبي، رحمه الله، من أكثر الشخصيات التي عرفتها تقبلاً للتغيير. و لم يكن التغيير في اسلوب المعيشة، إذ ظل على بساطته دوما. لكنه كان يتقبل معطيات الحياة ببهجة. كان دائماً يردد مثلاً شعبياً، يتقبل به طواريء الأمور و يفرض الواقعية. هذا المثل اجدني اردده و اجد فيه معيناً لتقبل متغيرات الأمور؛ "قال طحت و إلا طيحك الجمل؟ قال وصلت الأرض". بالنسبة له الأمر سيان، فالكيفية لا تفرق بكثير أو قليل، و قد تتعدد الأسباب و تختلف. فالمهم عنده تقبل النتيجة و البدء ثانية.
****
على فرشته يجلس و ينام و يستقبل القريب و الأهل. كان إذا جلس اتكأ على عدة مخدات و على جانبه الأيسر غالباً. حتى إذا اراد النوم، استدار على الجانب الأيمن و لف رأسه بغترة قديمة فقدت خشونة النشاء فيها و وضع مخدة طولياً يريح عليها يده و ركبته. و عادة يطلب من أحد أن يغطيه. "يا واحدة بنت" ينادي على واحدة منا دون تحديد فنسرع و نضع عليه غطائين، شرشف و بطانية.
في آخر سنوات عمره استبدل الفرشة التي ينام عليها و بدأ ينام على سرير، بسيط و مفرد. هكذا أراد. لا يرى أنه يجب عليه شراء غرفة نوم كاملة. سرير مفرد، و طاولة جانبية عليها التلفون و مناديل، و تحتها سلة يرمي بها مناديل أو ورقة لا يريدها. قريب منه، رف لأدويته و دولاب يحتوي ملابسه البسيطة، و آخر بأدراج لأوراق أو نقود سهلة التناول.
****
لم يكن هناك أي جهاز تلفون في بيتنا سوى الذي أمام فرشته. كان ينام على فرشة أو كما نقول بلهجتنا المحكية "طُرّاحة" على الأرض. و كنت و أخوتي و أخواتي إذا شئنا استخدام التلفون نجلس أمامه، يستمع لأحاديثنا و اسئلتنا مع الصديقات أو القريبات، دون ملل. بل و قد يسأل أحياناً ماذا و لماذا و أين، الخ من الأسئلة التي لم نجد يوماً بأساً في الرد عليها. فلم تكن هناك ما يُعرف بين جيل اليوم بالپرايڤسي أو إن شئت قل الخصوصية.
انتقلنا إلى بيت السلامة. حيث توفرت بعدها أرقام هواتف بعد شُحّ طال سنوات، و ادخلنا رقم هاتف ثاني غير هاتفه الخاص. لا نستعمل هاتفه و لا يستعمل هاتفنا، و إن كان الأمر متاحاً غير ممنوع. نرد على هاتفه فيعرف المتصل أن أبي غير موجود، إذ لو كان موجوداً لا يسمح لأحد بالرد غيره.

****
و على رغم عفويته المطلقة أو ما يبدو كفوضوية في طبعه، إلا أنه كان يتبع روتيناً منتظماً في حياته اليومية. في عام ١٩٩٢ م، و قبل فترة بسيطة من وفاته، كنت أقيم في لندن و تعرفت بزوجة السيد عبدالله بري، كانت جارتي. قالت عبدالله يسلم على والدك. و لما كنت اعرف معزّة أهل المدينة عنده، اسرعت اتصل به. كانت اتصالاتنا شحيحة. نطمئن بالرسائل. و لم يخبرني أحد عن تدهور صحته. اتصلت على تلفونه الخاص في وقت أعرف تماماً أنه سيردّ بنفسه، فكما قلت منتظم انتظام الساعة.
ردّت أمي... عرفت للتو أن هناك خطأ ما. سألت: أبويا في الحمام؟ قالت: لأ و لكنه لم يعد يردّ على التلفون، تقدري تيجي؟ في نفس الأسبوع سافرت الثلاثاء و توفى السبت الذي يليه. رحمه الله رحمة واسعة.
****
لم يحدث أن تعرض لسرقة على الرغم من عدم اتخاذه ابسط تدابير الأمن. باب الحوش مفتوح من صباح رب العالمين حتى آخر الليل. أما باب المنزل، فيمكن لأي طارق أن يفتحه و يدخل.

حدث أن ذهب إلى البنك و حمل مبلغاً من المال وسقط منه دون أن يدري. ما أن وصل إلى البيت، حتى وصله اتصال من البنك يخبرونه عن ظرف النقود. لم يُسرق و لم يفتقده أصلاً. بركة؟ نعم. أمانة موظفي البنك؟ أيضاً نعم. و الله خير حافظا.
****
حدث أن كان في انتظار صديق عمره، السيد ياسين طه، ليخرجا معاً كعادتهما كل عصر. ينتظر على كرسي في الحوش و يمر عليه عم ياسين، و ما أن يحل المغرب حتى يعودا. مررت أمامه أحمل كتاب قراءة صغير، قصة بلال بن رباح. اخذها و بدأ يقرأ و أنا واقفة انتظره. قلب صفحة وراء صفحة وراء صفحة و انتهى. اعلم الآن أنه في الحقيقة يقفز بالقراءة، فقصة بلال المقدمة لطالب أول متوسط لن تأتي بجديد بالنسبة له، مع ذلك استوقفتني الحادثة دهشة؛ كيف يمكن أن ينته منه و أنا ادرسه كمقرر طوال العام؟ ليس هذا ما يدهشني اليوم. الذي يدهشني هو ابداء اهتمامه بقراءة مثل هذا الكتاب و هو في غنى عن المعلومات الواردة به.

****

على ذكر الأصدقاء، كان يعتز بصداقة الأستاذ عزيز ضياء و يلقبه بالضياء عزيز، و السيد ياسين طه، و السيد ضياء الدين رجب، و السيد حمزة شحاته، الذي توفى في مرحلة مبكرة من عمره. هناك آخرون بالتأكيد. كان يعتز بصداقة من كان جيلاً جديداً بالنسبة له و أولهم السيد الأستاذ عبدالله جفري. رحمة الله عليهم أجمعين.

****

كان رحمه الله لا يطيل النوم صباحاً، و يسهر في الليل. لذا كانت القيلولة بعد الغداء أمر لازم عنده. و عندما كنا صغاراً كان يدخلنا الغرفة عنده، ليس فقط لننام، بل ليتأكد أن أحداً منا لن يزعجه. كنت اكره ذلك. فالوقت ثمين و لا أريد بعقلي الطفولي أن اضيعه في النوم. كان من الممكن أن اتسلل من الغرفة بعد أن ينام، لكن الخوف من العقاب يردعني. و طبعاً ينتهي بي الحال بالنوم ايضاً.

****
وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا
كانت هذه الآية له نبراساً و أسلوب حياة. فالشرط واضح و الجزاء واضح؛ تخاف على أبنائك؟ اتق الله. كان خوفه علينا كبيرا. و لذا كان يرددها دائماً، و يخاف أن يظلم أحداً أو يكون سبباً في ظلم أحد.
تحمّل هو و أمي ألم فراق الأبناء في سبيل تعليمهم كأي ابوين، و اكرمه الله بأن انعم علينا نعمتي الصحة و التوفيق.
****